تجليات النسق الاجتماعي
في قصيدة "ألست" للشاعر الجزائري "قعر المثرد بشير"
مقاربة نقدية في ضوء النقد الثقافي

Manifestations of the social system in « alasty » poem by the algerian poet « kaar elmethered bachir » a critical approach in light of cultural criticism

شيماء مباركية

د نوال بومعزة

تاريخ الإرسال: 2023/12/27	تاريخ القبول:2024/02/17	تاريخ النشر:2024/04/27

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الشعر الجزائري المعاصر بوصفه جنسا أدبيا خاضعا لمقولات ما بعد الحداثة من حيث المنهج والتشكيل والرؤيا، تتداخل فيه الأنساق الثقافية والاجتماعية وغيرها من قضايا الراهن التي تفتح باب التأويل على مصراعيه لمقاربة النص وفق إحدى مقولات مناهج النقد المعاصر، وقصيدة "ألست" للشاعر الجزائري بشير قعر المثرد قصيدة من الشعر الجزائري تتناول نسقا مضمرا يتمثل في نسق "الأنا العليا" الذي تجذر من عصور سابقة عبر اللغة إلى العصر المعاصر، إذ تهدف هذه الدراسة إلى بيان قدرة اللغة على التضمين والتورية كشكل من أشكال شاعرية النص التي تدفع القارئ/الناقد إلى البحث في متواريا تها للكشف عن تلك المضمرات اللغوية، وعلى هذا الأساس إلى أي مدى يمكن للنقد الثقافي أن يؤول النص الأدبي ويفكك دلالاته؟ وما هي أهم الآليات التي يتبعها في ذلك؟ .

الكلمات المفتاحية: الشعر الجزائري المعاصر، النقد الثقافي، بشير قعر المثرد، الأنا، النسق المضمر.

Abstract:

This study aims at shedding the light on the contemporary Algerian poetry by describing it as a literary genre that is submissive to post-modernism in terms of theory, structure and vision. In this genre, the cultural and social structures are merged. Structures that open doors to interpretation to study the text through the application of modern criticism theories.The poem entitled:" Aren't You?" written by Bashir Kaâr El-Methred is an Algerian poem examines the Upper Ego which is shown in earlier ages through language until nowadays modernism. Hence, this study aims at showing the ability of language to represent the implicit and pun meanings as a part of the peot's poetic style. The implicitly of these meanings leads the reader and / or critic to search for their indications. So, to what extent can the cultural critic interpret and decode the literary text? And what are the strategies that he follows?

Key words: contemporary Arabic poetry; cultural criticism; Bashir Kaâr El-Methred ;ego; implicit format

المؤلف المرسل: mebarkia-chaima@univ-eloued.dz

مقدمة:

تعد مرحلة ما بعد الحداثة من أهم المراحل تأثر بها الفكر النقدي، إذ تأثر النقد بفلسفة هذا العصر، فحارب مفهوم النسق المغلق الذي سنته المؤسسات الأكاديمية البنيوية وقوقعته في مقولات اللغة كمقولات قدسية لا يثور عليها النقد تحت أي ظرف من الظروف، فوجد النص نفسه محاصرا بين مستويات اللغة : المعجمية ،النحوية، الصرفية والبلاغية، غير قادر على الإفصاح بما تواريه اللغة خلف تلك المستويات، والهدف من الدراسة يتمثل في تعالق النقد الثقافي بكل حمولاته المعرفية مع القصيدة الجزائري رغبة في البحث عن متوارياتها الثقافية والاجتماعية والسياسية، فالأدب الجزائري هو الآخر يتعالق مع قضايا الراهن ويبرزها في حلة أدبية تسعى بطريقة أو بأخرى إلى تغيير هذا الواقع أو التعريف به، وهذا لا يتأتى إلا من خلال مقولات النقد الثقافي بآلياته المختلفة التي طبقت لدراسة هذا الموضوع، فإلى أي مدى ساهم النقد الثقافي في الانفتاح على القصيدة الجزائرية ، وهل تمكن صراحة من الكشف عن مضمراتها وأنساقها المهمشة؟.

2.النقد الثقافي: الماهية والمفهوم

1.2 ماهية النقد الثقافي وملابسات ظهوره في النقد

من بين ما تقره فلسفة ما بعد الحداثة يبرز النسق المضمر كآلية من آليات النقد الثقافي الذي رسم معالمه الناقد الغربي فنسنت ليتش (V Leitch) في أمريكا عام 1987 الذي يقر فيه بالحاجة إلى آلية نقدية تختلف جزئيا عن معطيات النقد الأدبي المألوف، وجعله مرادفا لما بعد الحداثة: «حيث نشأ الاهتمام بالخطاب بما أنه خطاب، وهذا ليس تغييرا في مادة البحث فحسب، ولكنه أيضا تغير في منهج التحليل، يستخدم المعطيات النظرية والمنهجية في السوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والمؤسساتية، من دون أن يتخلى عن مناهج التحليل الأدبي النقدي»[1]، ثم انتشر بعد ذالك في العالم العربي مع كتاب النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية للناقد عبد الله الغذامي الذي عمد فيه إلى خلخلة النظم السائدة والمعتقدات البالية التي تخفي جزءا كبيرا من الثقافة يتمثل في نسق الهامش وما يندرج ضمنه من أدب الطفل، أدب الزنوج، الهامش، الطبقية الاجتماعية، واللغة النسق التي تطغى بقواعدها على معطيات الثقافة المضمرة، ففي هذا الصدد يقول الغذامي: «لقد أدى النقد الأدبي دورا مهما في الوقوف على (جماليات) النصوص، وفي تدريبنا على تذوق الجمالي وتقبل الجميل النصوصي، ولكن النقد الأدبي، مع هذا وعلى الرغم من هذا أو بسببه، أوقع نفسه وأوقعنا في حالة من العمى الثقافي التام عن العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمالي، وظلت العيوب النسقية تتنامى متوسلة بالجمالي، الشعري والبلاغي، حتى صارت نموذجا سلوكيا يتحكم فينا ذهنيا وعمليا»[2]، فالمراد أن من الممنوع على الشاعر جماليا أن ينزاح عن قواعد البلاغة والنحو التي أقرت بأنها معيار الجمال الأدبي العربي، أما ما تقوله الثقافة أو ما يقر به سياق إنتاج النص فهو خارج أولويات النقد الأدبي الذي يطغى على النص ويفرض عليه السير وفق نظام الجمال. في حين على القارئ أيضا أن يؤول النص الشعري وفق تلك المعايير الثابتة منذ عمود الشعر المورزوقية.

2.2مفهوم النقد الثقافي وخصائصه

النقد الثقافي في حقيقة الأمر هو: «نشاط وليس مجالا معرفيا خاصا بذاته»[3]، فما يختلف فيه النقد الثقافي عن مختلف المناهج النقدية التي سبقته كان في طبيعة مقاربة النصوص الأدبية، فتلك المناهج السابقة قاربت النص من حيث بنيته اللغوية أو دلالاته ومستوياته، في حين يبحث النقد الثقافي عن الأنساق المتوارية خلف اللغة من أنساق سياسية واجتماعية وثقافية يخفيها الأديب ويؤولها القارئ حسب ثقافته ودرايته بسياقات إنتاج النص.

ثم يضع عبد الله الغذامي ثلاث خصائص تميز النقد الثقافي تتمثل في:

أ- لا يؤطر النقد الثقافي فعله تحت إطار التصنيف المؤسساتي للنص الجمالي، بل ينفتح على الخطابات والظواهر التي لا تقرها المؤسسة الأكاديمية.

ب- يستفيد النقد الثقافي من مناهج التحليل العرفية كالتأويل والتاريخانية.

ج- التركيز على أنظمة الخطاب والإفصاح كما في حفريات فوكو، ودريدا في مقولته: "أن لا شيء خارج النص"، ومفاتيح التشريح النصوصي البارتي[4]

3.الشعر الجزائري المعاصر في ضوء مرآة النقد الثقافي

1.3الشعر الجزائري المعاصر وظاهرة النسق المهمش

يبدو أن لغة الشعر تختلف عن لغة النثر، فالشعر لغة:«لا تعبر عن العادي والمتداول ولكنها تعبر عن المخبوء والمحجوب، فهي لغة تتجاوز المحسوس إلى غير المحسوس والمرئي إلى غير المرئي والمحدود إلى غير المحدود. هي لغة تغوص إلى أعماق الوجود وتتوغل في أسرار الكون بحثا عن الجوهر»[5]، فلغة الشعر لغة جمالية شاعرية تخفي في طياتها أكثر مما تبدي من الدلالات السطحية الظاهرة، لذلك ندد النقد الثقافي بأهمية تلك الأنساق المتوارية في بناء العمل الأدبي والثقافة عموما بوصفها جزء لا يتجزأ من تكوينها.

كما يبدو أن: «الشاعر المعاصر يمنح اللغة مساحة أوسع من دلالتها المعجمية حيث يزيدها قوة ويمكنها أن تعني أكثر مما كانت تعني في السابق، فتحيا لغة الشعر مع كل قصيدة حياة جديدة، تتوالد فيها المعاني لتصل إلى حدود الخرق اللغوي، فالكلمة في القصيدة تتخذ معناها ودلالتها من الموضوع، ومن سياق اجتماعي وإنساني وثقافي معين، وهو ما يفرض على المتلقي تفعيل آلية التأويل في هذه اللحظة أو تلك، باعتبار أن التأويل أحد أهم المداخل النقدية، وهي أداة لا غنى عنها لتمثل فنية النص الشعري المعاصر وفهم دلالته وأبعاده المختلفة»[6]، والجدير بالذكر أن الشاعر يتأثر بملابسات الراهن فيبدع على منوالها، إذ عندما تستجد بعض القضايا في الواقع، يجدد معها الشاعر خوالجه وقواعد نظمه وقضايا نصوصه الشعرية وضوابطها أيضا، لذلك يعتمد الشاعر المعاصر على إبراز أنساق وإخفاء أخرى حتى يتسنى للقارئ تأويل النص من جديد والمساهمة في استمراريته عن طريق القراءة والتنقيب عن ماهية تلك الأنساق التوارية.

2.3 قصيدة "ألست" وتجلي النسق الاجتماعي الظاهر والهامشي

قصيدة "ألست" من الشعر الجزائري المعاصر الذي يخفي الكثير من القضايا الاجتماعية والثقافية ضمن دلالاته الظاهرة، فالمتأمل في أبيات القصيدة يلاحظ حضور "الإيجو" في مختلف مقامات النص باعتبارها ظاهرة منتشرة في الأدب منذ العصر الجاهلي باعتبارها: «امتداح الذات أو حب الذات كمكافأة على الأفكار الفاضلة أو الرغوبة وعلى خلاف المعنى العادي للضمير فإننا ندرك أن وظائف الأنا العليا عادة ما تكون أكبر ولها إدراكية»[7]، فنزعة الأنا المتعالية انتشرت في الشعر الجاهلي في شعر المعلقات للمبالغة في حب الذات والغلو في وصف مغامراتها في الحروب والأزمات، ومن بينها نجد الشاعر حسان بن ثابت يقول متغنيا بذاته وعشيرته وكبار أهله وقومه:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق

فأكرم بنا خالا وأكرم بذا إبنما

فالفخر بالنسب والقوم والإنجازات من شيم الشعراء، إذ يفخر هؤلاء بشجاعتهم وكرمهم وقوتهم وجاههم ويتظاهرون به على الأقوام الأخرى من ضعاف القوم والقبيلة، إذ عرف الكثير من الشعراء الآخرين بحب الذات والمغالاة فيها، ومن بينهم امرؤ القيس والمتنبي، وعلى منوالهم سار الشاعر الجزائري بشير قعر المثرد لمجارات الأنا المتعالية المترسبة إلى الراهن عبر اللغة كنسق مضمر من أنساق اللغة المتوارية.

يقول:

ألست كل أزمنتي*****ألست كل ألحاني

ألست البحر يأخذني*****من الموج لشطآني

ألست كل أشرعتي*****وأسمائي وعنواني

ألست الحب والأشوا*****ق في روحي ووجداني[8]

فالضمير (أنا) متواجد في مقطع النص الشعري الأول في العبارات الآتية : (عنواني، وجداني، ألحاني، أشرعتي، روحي...)، وبالعودة إلى سياق إنتاج النص يبدو أن الشاعر الجزائري متأثر بنزعة الأنا القبانية، فقد سبقه نزار قباني في ذات السياق بقوله:

إني عشقتك...واتخذت قراري

فلمن أقدم يا ترى أعذاري

لا سلطة في الحب تعلو سلطتي

فالرأي رأيي والخيار خياري

هذي أحاسيسي فلا تتدخلي

أرجوك، بين البحر والبحار

والملاحظ أن النسق المضمر في كلا القصيدتين هو نسق سياسي يتناول فيه الشاعر الأسبق في الطرح نزار قباني قضية سياسية عن وطنه لبنان في ظل التدخلات الأجنبية لسيادة الدولة والتسلط عليها من خلال سن قواعد وقرارات من شأنها أن تدمر استقلالية لبنان، ففي الظاهر أن الشاعر يصف ولعه بامرأة ويتفانى في غرامها، لكن عند التعمق في سياق الحال المرتبط بمقام القصيدة جليا يتناول قضية سياسية مضمرة في خبايا اللغة أضمرها النسق الأكاديمي الذي يعتبر الأدب قصرا على التجلي الجميل دونما غيره من قضايا الراهن المختلفة.

وعلى منواله ينسج بشير قعر المثرد أبياته سالفة الذكر من الشعر الجزائري الرافض لتدخل الآخر في مختلف شؤون الجزائر، ولم تأت هذه الانتفاضة من فراغ، إنما الشأن في ملامسة القضية الجزائرية لإحساس الشاعر والتزامه بمعطيات الراهن التي حتمت عليه أن يتمثل الأنا المتعالية على تلك التدخلات الأجنبية والقرارات التي من شأنها أن تزحزح استقرار الجزائر مثلما كان الأمر سابقا إبان وبعد الثورة الفرنسية الجزائرية التي تركت بصمتها الكولونيالية على الفرد والمجتمع.

يقول الشاعر مخاطبا الجزائر/ الوطن : "ألست كل أزمنتي"، ليؤكد على انتماءه الروحي والجسدي إلى موطنه، وفي الوقت ذاته يعد هذا المقطع الشعري نسقا اجتماعيا مضمرا يتوارى خلف الأنا الطاغية على هذا المقطع، إذ ينسب الشاعر مختلف الأزمنة إليه ومختلف الشواطئ والبحار كذلك، فإن دل ذلك على شيء إنما هو رفضه الشديد للآخر المتسلط العدواني الذي يريد بطريقة أو بأخرى استغلال الأرض ببشاعة والتعمير فيها مثلما الشأن في التواجد الكولونيالي في الجزائر سابقا الذي دام قرابة 130 سنة.

وللتطرق لمثل هذه القضايا الاجتماعية التي يرفض النقد الأدبي الأكاديمي الخوض فيها باعتبارها طروحات تنزل النقد الأدبي من عليائه، ذلك أنه يبحث في قضايا الأدب الجميل والتوظيف اللغوي الأكاديمي دونما التعالق مع قضايا الراهن المختلفة بوصفها قضايا براغماتية تبرز حاجة المجتمع الماسة إلى تدخل الأدب الذي يفتح إلى: «اللانهاية إمكانية هذا التفاعل مع الآخرين وهو إذن يثرينا لا نهائيا. يزودنا بإحساسات لا تعوض تجعل العالم الحقيقي أشحن بالمعنى وأجمل. ما أبعده عن أن يكون مجرد متعة، وتلهية محجوزة للأشخاص المتعلمين، إنه يتيح لكل واحد أن يستجيب لقدره في الوجود إنسانا»[9]، فالنقد الثقافي ينزع عن الأدب طابع الأدبية البحتة ويقر بمعطياته البراغماتية التي تكشف حجاب تلك الأنساق المضمرة، لذلك اقترح رواد النقد الثقافي أن يكون بديلا منهجيا عن النقد المؤسساتي لعدم قدرته على مسايرة مجريات الواقع وتلبية حاجيات الإنسان، فقد بقي حبيس جماليات النص مهملا ما عداها من قضايا جزئية ساهمت في إنتاج ذلك النص.

والأدب في جوهره رسالة اجتماعية ترتدي حجاب الجمال وتتستر وراء مقولاته الطوباوية التي تدعي امتلاك الحقيقة كاملة وتعتبر اللغة ذات قوانين ثابتة لا يمكن للنص الأدبي خرق نظامها المقنن متجاهلة مصداقية الأدب التي تتجلى في: «التأثير الذي يتركه في المتلقين، لأنه ينبع من صميم حياتهم»[10]، فالعلاقة بين الأدب والواقع مبنية على التأثير والتأثر، فالمبدع يتأثر في لا وعيه بأحداث واقعه التي تتغير هي الأخرى متأثرة بما يكتب هو في معالجة تلك القضايا، لذلك كانت العلاقة جدلية بين الأدب والعلوم الأخرى، إذ تحضر بقوة في أصل بنيته وتساهم في إنتاجه متأثرا بعلم الاجتماع تارة، وعلم النفس تارة أخرى، وعلوم اللغة واللسانيات من جهة ثالثة وهكذا في لعبة تأثير وتأثر متواصلة تبرز حاجة الأدب إلى سياقات إنتاجه وخدمته لها في الآن نفسه.

ومن بين قضايا الهامش نلفي الغربة التي يعيشها المغترب عن وطنه، غربة روحية تفتك بالإنسان شوقا وحنينا لوطنه الأصلي، فمخلفات الغربة من بين القضايا التي تضمرها اللغة، بوصفها لغة شاعرية تبدي ما يريد القارئ أن يتلقاه في قرارة نفسه، إلا أن النقد الثقافي يبرز تلك الجوانب التي تخشاها اللغة، ومن ثم الثقافة والسياسة وغيرها من المجالات، التي لا يخدمها وضوح ذلك النسق المتخفي بين سطور الجمال والفن وقوانين الانغلاق البنيوية التي لم تعد قادرة على نقل الحقيقة كاملة كما يبثها النص، وفق مختلف علاماته المشفرة التي يدركها القارئ، من خلال التأويل المستمر لمقولات النص واستنطاقه.

يقول الشاعر:

وها قد ولى من أمس*****-كغربتهم-غريبان

وها قد صاح دمع الشو*****ق قال: الدمع أعياني

وكان دمي إذا ما صر*****ت أرثي العمر يرضاني

لأنك أنت لست معي*****ولست القاصي الداني[11]

فقضية هجرة المبدعين خارج الوطن نحو بلاد الشام والحجاز والمغرب في العالم العربي، أو إلى دول أروبية نحو انجلترا وايطاليا وفرنسا ..ولاسيما خلال وبعد الاستعمار، الذي أثر سلبا على مختلف مجالات الحياة في المجتمع الجزائري -وإن كانت الهجرة قضية تراثية قديمة قدم الانسان نفسه الذي كان يهاجر بحثا عن الكلأ والماء لكنها تطورت تدريجيا بتدرج الزمن فأصبحت لهدف التعبد والحج ثم انزاحت عن مألوفها إلى صورتها الحقيقية؛ للفرار من واقع مريرا سعيا لواقع أفضل- ، فقد:«ساد الأوساط الشعبية، في الشرق الجزائري في أوقات اشتداد حركة الهجرة نحو الشام مثل شعبي، مفاده: " بيع الأرض واركب البحر". وفي ذلك دلالة قاطعة على يأس الجزائريين الكبير، الذي دفعهم إلى التخلي عن أراضيهم، لا لشيء ولكن ليفلتوا من المظالم التي كانت السلطات الاستعمارية الفرنسية تسلطها عليهم يوميا»[12]،ولا شك أن الهجرة بمعناها الظاهر الدال على الارتحال والسفر والإقامة خارج الوطن، تعني ذلك الهروب من واقع متهالك بائس يولي جل اهتمامه إلى ترميم ما خلفته الدول الاستعمارية في أصل بنيته؛ فقد كان الاستعمار أعمق دافع يدفع بالجزائريين إلى مغادرة الجزائر بحثا عن سبل الاستقرار والعيش النبيل:« هروبا من التعسف والاضطهاد، ...ومما أثر سلبيا على الجزائريين من حيث تماسكهم الاجتماعي والسياسي بصورة خاصة هو فقدان أراضيهم وممتلكاتهم، وبالتالي تشريدهم وتفتيتهم وضربهم في الصميم.»[13] ، وحتى بعد الاستقلال شعر هؤلاء الأدباء بالاغتراب في مجتمعهم الذي لا يقوى على تحرير القلم في ظل الظروف الراهنة، على اعتبار أن المجتمع الجزائري اهترأ ولم يعد بإمكانه سوى أن يهتم بداية بالسياسة والاقتصاد-فالثورة لم تغير شيئا سوى أن طردت المحتل- ، كونهما ركيزتين أساسيتين في بناء مجتمع ما بعد الكولونيال خلفا للإبداع والفن الذي لا يمثل أزمة تستوجب حلا فوريا، فكانت الهجرة نحو الشام واليمن وتونس وطرابلس طريقا يفتح الباب نحو الارتماء في أحضان فرنسا المحتلة، في حين كان الواجب أن يحدث الأديب قطيعة كلية مع الرجعية الثقافية الغربية

لذلك كانت للشاعر "بشير قعر المثرد "رؤية عكسية لهؤلاء، خالف فيها طرحهم، فأبرز مآسي الغربة والشعور القاتل بالاغتراب والحنين إلى الوطن مؤمنا بمبدأ: " بلادي وإن جارت علي عزيزة*** وأهلي وإن ضنوا علي كرام"، ففي قوله:

وها قد ولى من أمس*****-كغربتهم-غريبان

وها قد صاح دمع الشو*****ق قال: الدمع أعياني

فنزعة الحنين إلى الوطن مفعم بالدلالات المضمرة التي تحيل إلى وحشية الآخر، وعدم تقبله الأنا في رحاب تلك البلاد، فالعلاقة بين الإثنية الأنا/الآخر علاقة مضطربة بسبب الزحف الكولونيالي على مختلف البلدان العربية ونهب ثرواتها، فالأسف يبدو على الشاعر من خلال قوله: " الدمع أعياني" التي تحمل معنى الرفض للغربة والولاء للوطن والعروبة والهوية والأصالة.

والأدب في حقيقته تعبير عن مختلف المواقف الإنسانية، لذلك نجد الشاعر الجزائري يتخذه سبيلا للنظم، فقصيدة "ألست" مفعمة بكم هائل من السمات الجمالية ومستويات اللغة الشاعرية، وبالقدر ذاته تحمل قضية ثقافة وهوية، لذلك ينتفض الشاعر وفقا لما تمليه عليه خوالجه تجاه وطنيته ودفاعه عن انتماءه للجزائر، فالأدب يفقد مصداقيته عندما: «يتحول إلى أداة لإلهاء الجماهير عن واقعها، ودفعها إلى الخنوع والاستكانة، واليأس، واستسلام، أو الانتحار»[14]، فالعيش في مجتمع لا يعبر أدبه عن واقعه هو بمثابة انتحار فعلي، لأن الفرد لا يعي الظروف المحيطة به، خاصة وأن الأدب الأكاديمي لا يعير اهتماما للفرد والمجتمع بقدر ما يهتم بطروحات النخبة التي لا تعدو أن تكون ملهاة تصبو إلى المتعة أكثر مما تصبو إلى الشأن الاجتماعي، يقول الغذامي: «ومن هنا فإنه من الواجب النظر إلى فعل الإمتاع نظرة إشكالية تضع المتعة مع غيرها من الأفعال العمومية البشرية من الخبرات والسلوكيات مما هو استجابة لبواعث نسقية، مما يتطلب التساؤل عما إذا كان فعل الإمتاع يدفعنا إلى حياة أفضل وإلى مجتمع أفضل أم أنه يزج بنا في أتون الفعل اليومي الذي يفعل فعله في إخضاعنا وإذلالنا»[15]، فالملهاة والمتعة لا تلتفت في حقيقة الأمر إلى هموم المجتمع أو العمل على توفير حلول مستعجلة من شأنها أن تخلص الواقع كما تفعل البراغماتية التي تبحث عن سبل المنفعة الأدبية ومدى أهميتها في تطور المجتمعات وازدهارها.

ويكون كذلك للشاعر الملتزم القدرة على صياغة انشغالات المجتمع ومخاوفه كرسائل فنية مشفرة يدركها المتلقي الواعي الذي يعتمد في تأويله لتلك الشفرات على معطيات العصر وسياقه الذي كثيرا ما نجده يتحكم في النص الأدبي، ويحدد مساره، لشدة ارتباطه بالواقع، يقول الشاعر:

ولست كمن سيعرف أنني فرح وخلاني

ولست غدا يراقص كل أحلامي وأحزاني

ولست كمن يزور العم ر-مفتونا-ليلقاني

ولست...وضاع همس الشعر صار الشعر بركاني

قفي بالصبر خلت الصبر لا يبكي...فأبكاني!

وهات الشوق في صحو*****أودعه لينساني

فالوطن يحمل على عاتقه قلق الإنسان ومعاناته، فكأنه هو الآخر إنسان يتقاسم الهموم مع أخيه، وليس أدل على ذلك من قوله: " ولست غدا يراقص كل أحلامي وأحزاني"، فالوطن أم تحنو على أبناءها وتشفق عليهم من وحشية الغربة والأسى الذين يعايشونه في أراضيها، إذ يقول: " قفي بالصبر خلت الصبر لا يبكي...فأبكاني"، فالتذمر ذاك مكن الشاعر من تصوير معاناة الغريب عن وطنه بأسمى عبارات الشوق والحنين، فمتى كان الآخر صديقا بعدما كان عدوا؟ هو السؤال الذي ينطلق منه بشير قعر المثرد في هيكلة قصيدة "ألست"، وفق هذا القالب الفني الجميل الذي يخفي ضعف جماله في روعة توظيف النسق المضمر وتعرية الحقيقة الطاغية مذ بداية القصيدة وحتى نهايتها.

إن ما يثبت التزام الشعر اجتماعيا هو قوله: "ولست...وضاع همس الشعر صار الشعر بركاني"، فالمتأمل في المقطع الشعري يتأكد من دعوة الشاعر المضمرة إلى بقية الأدباء على الالتفات إلى ملابسات الراهن التي تجعل الفرد فيها يعيش وعيا شقيا بين البقاء والهروب، فما يسعى إليه بشير قعر المثرد[16] هو الحث على التمسك بالوطنية والدفاع عنها بالنفس والنفيس، وعدم الإذعان والخنوع لمغريات الآخر ، ففي معتقده أن: « الشعر بصفة خاصة، والأدب بصفة عامة يجب أن يؤثر في الناس، ويجب أن يتأثر بهم، لأنه نشاط اجتماعي يصدر من المجتمع ويتوجه إليه، والأديب عضو فيه يخوض غمار الحياة بحس قوي وبصيرة نافذة في الأشياء»[17]، فالقاسم المشترك بين الفرد والمجتمع هو عامل التأثير الذي يجعل هذا الكائن يدرك مختلف الوقائع والحقائق التي يعيشها من خلال النصوص الأدبية؛ إذ أن الأدب يلعب دورا كبيرا في إنقاذ المجتمعات من التقهقر والانحطاط.

وفقا لهذا الطرح، يسلمأنطونوانيوس بطرس أن الأدب وليد التجارب الإنسانية المتضمنة في مختلف المجتمعات، التي تتغير بتغير الراهن، الذي يؤثر بدوره على الإنتاج الأدبي، إذ يعتقد أن:«الأدب هو الإنسان، بكل ما لكلمة إنسان من معنى، لأنه يصدر عنه، ويعود إليه، ويتحدث عن همومه وشؤونه ومشاغله. وهو، في كل ذلك انطلاق حر لا يمكن تحديده، لأن النفس الإنسانية بعيدة الغور، مترامية الأبعاد، ومن العسير قوننتها وإخضاعها للتحليل العلمي الصرف. ومن المستحيل حصر الأدب في حقل الفكر الموضوعي، وتجريده من الارتعاشات الذاتية التي تعطيه بعده الإنساني، وجماله، وديمومته»[18]، فمعنى هذا التعالق بين الأدب والذات البشرية يكمن في قدرته على التعبير عن مشاغل هذه الذات، وإدراك همومها وخوالجها، فهي ذات تعيش في كنف المجتمع، وتتأثر بالظروف المحيطة به، ويتأثر هو الآخر بخوالج هذه النفس المتغيرة وفق ما يقتضيه راهنها، فيصبح للأدب بعد إنساني أيضا غير الأبعاد المألوفة: الاجتماعية والثقافية والمرجعيات المختلفة التي تبلور موضوعه وترسم مساره نحو الاستمرارية، ويكون الشأن فيه لمراعاة الجوانب الإنسانية.

4.خاتمة:

في ختام الأمر يتضح أن علاقة الأدب بالواقع علاقة وطيدة، فالأدب نتاج لهذا المجتمع بمختلف ملابساته وظروفه التي تستدعي تدخل الأديب حتى يعرض تلك الوقائع في خضم أعماله الأدبية المختلفة.

تعددت آليات مقاربة النص الأدبي من السياق إلى ما بعد النسق، ومن بينها النقد الثقافي الذي يسعى بشكل أو بآخر إلى الكشف عن مضمرات الثقافة وفق النسق المضمر الذي يلتفت إلى متواريات اللغة.

يزخر الشعر العربي بالأنساق المضمرة التي ترسبت منذ القديم وحتى العصر المعاصر عبر اللغة ومن بينها الأنا الطاغية التي مرت على مختلف العصور الأدبية منذ العصر الجاهلي، مرورا بالأموي والعباسي، ثم العصر الحديث والمعاصر.

يسعى الشاعر الجزائري بشير قعر المثرد إلى الكشف عن المضمر السياسي في قصيدته "ألست" ليبرز من خلالها مساوئ الغربة ويعبر عن الحال التي يؤول إليها الغريب عن وطنه، ومن ثم فهو يحمل نصه مجموعة من الرسائل المشفرة التي تبدأ بالتمسك بالهوية الوطنية والدفاع عنها، ثم الالتزام بقضايا المجتمع وصد الآخر سيما بعد النكبات المستمرة التي تلقاها العربي من الآخر.

ومن الأجدر على الباحث في ميدان الأدب والنقد أن يبحث في علاقة الأدب ومختلف البنيات الثقافية والاجتماعية، حتى يتسنى له إدراك الجانب البراغماتي ودوره في خدمة الفرد والمجتمع.

5. الهوامش:

[1] عبد الله الغذامي: قراءة في الأنساق الثقافية العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3،2005، ص32

[2] المرجع نفسه، ص08.

[3] آرثر أيزا برجر: النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2003، ص30.

[4] المرجع السابق، ص32.

[5] بومدين ذباح وأحمد العارف: لغة الشعر بين التشكيل والتأويل، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2018، ص07.

[6] المرجع نفسه، ص17/16.

[7] المرجع نفسه، ص161.

[8] قعر المثرد بشير وآخرون: قبل أن تنفد الكلمات، دار الثقافة، الوادي، 2007، ص 61.

[9] تزفيطان تودروف: الأدب في خطر، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2007، ص11.

[10] عمار بن زايد: النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، دت، ص103

[11] القصيدة، ص61.

[12] عمار هلال: الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام (1847-1918)، دار هومة، الجزائر، دط، 2007، ص07.

[13] المرجع نفسه، ص25.

[14] عمار بن زايد: النقد الأدبي الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص103.

[15] عبد الله الغذامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، مرجع سابق، ص24.

[16] بشير قعر المثرد هو شاعر جزائري من مواليد بمدينة وادي سوف

[17] عمار بن زايد: النقد الأدبي الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص115.

[18] أنطونوانيوس بطرس: الأدب تعريفه - أنواعه - مذاهبه، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1،2013 ص09.[18]